

الافتتاحية
ندوة علمية دولية عن
«الاستشراق وأثره في الثقافة العربية بالقيروان»
بقلم رئيس التحرير أ.د. سعد بوفلاقة

نظم قسم اللغة والأدب والحضارة العربية بجامعة القيروان، بالتعاون مع كلية الآداب بسوسة، ندوة علمية دولية بعنوان: «الاستشراق وأثره في الثقافة العربية»، أيام: 8، و9، و10 ديسمبر 2009 م.

وشارك في فعاليات هذا المؤتمر نخبة من الأساتيد والعلماء والباحثين من مختلف بلدان العالم، من المغرب الأدنى (تونس، وليبيا)، والمغرب الأوسط (الجزائر)، والمغرب الأقصى، وفرنسا، وغيرها.

قدموا خلال ثلاثة أيام ما يزيد عن خمسين مداخلة تتعلق بالاستشراق وأثره في الثقافة العربية.

إن موضوع الندوة هام رغم أنه سبق الخوض فيه في عديد المناسبات، إلا أنه لا يزال يستحق الندوات والدراسات تلو الدراسات.

لقد اهتم المفكرون العرب في القرن الماضي بالاستشراق والمستشرقين، فظهر لكثير من المفكرين والباحثين العرب دراسات متعددة ومختلفة عنهم تراوحت بين المدح والذم، رأى بعضهم أنَّ الاستشراق كان حركة شريرة لم تقدم لتاريخنا العربي، ومقدساتنا أية خدمة أو نفع، ورأى آخرون أنَّ الاستشراق حركة كان لها من الأهداف المعادية للعروبة والإسلام، ولكنه يظلُّ مساهمة لا يمكن تجاهل أهميتها أو التغاضي عما كان لها من مردود

واضح الأثر في إغناء الدراسات العربية والإسلامية في مختلف حقولها، وآفاقها.

«وأتهم من أنصف المستشرقين، ومن تجنّى عليهم هو أيضا متهم» وتظلُّ ظاهرة الاستشراق موضع جدل وبحث، وهذا ما يدعونا إلى القول بأنَّ الاستشراق لم ينل حظه من البحث العلمي المتجرد، وأن الكثير من الدراسات في هذا الموضوع ما تزال بحاجة إلى إعادة النظر، وخاصة ونحن على أعتاب العولمة (العالمية) التي يجب التعامل معها «كظاهرة لا مفر من الإقرار بوجودها، ولكن من الضرورة الاهتمام بها ومحاولة الاستفادة من جوانبها الإيجابية، والتحفّظ على جوانبها السلبية.. أي: نستطيع إعداد خطة علمية للاستفادة من العولمة العالمية ومواجهة العولمة الأمريكية».

لكل هذه الأسباب كان موضوع الندوة جديراً بالدراسة والبحث، وهو ما قام به الباحثون في أبحاثهم المقدّمة في الندوة عبر محاورها التي حدّتها اللجنة العلمية للندوة التي يرأسها الأستاذ الدكتور رضا بن حميد، رئيس القسم، وقد أشار في كلمته الافتتاحية إلى هذه المحاور، وأهمية مثل هذه الندوات، وما تُقدّمه للبحث العلمي من إضافة خاصة إذا كان المتدخلون من كبار الأسماء في هذا الاختصاص.

أما الأستاذ الدكتور محمد بن دريسة، رئيس جامعة القيروان، فبين في كلمته الافتتاحية قيمة الندوات العلمية، وأثرها في تنشيط البحث العلمي في تونس، والوطن العربي، تلتها كلمة الدكتورة ليلي الرماح، عميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، التي رحبت بالضيوف، ووعدت بطبع الأبحاث المقدّمة في الندوة، ثم قدم الأستاذ الدكتور محمد بوهلال، مدير وحدة

البحث «اتصال العلوم وانفصالها في الثقافة العربية» بسوسة، فأشاد بما بذله قسم اللغة العربية من جهد في الارتقاء بمستوى الجامعة في مجال البحث العلمي، وإصراره على إنجاز مثل هذه الندوات المهمة. وعبروا جميعاً عن فرحتهم وشكرهم للأساتذة الباحثين الذين تجشموا عناء السفر، والتنقل، وجأؤوا من كورٍ وأصقاع شتى لحضور هذا المؤتمر العلمي .

أما الجلسات العلمية التي شارك فيها ما يزيد عن خمسين باحثاً، قدموا خلالها بحوثاً تعالج قضايا الاستشراق وأثره في الثقافة العربية، نذكر منها: بحث الدكتور حمادي بن جاب الله الموسوم ب: «القبلي السياسي والقبلي النظري في مقارنة الظاهرة الاستشراقية»، تناول فيه مسألة التقابل بين الشرق والغرب ومشروعيته، فالصينيون مثلاً لم يقسموا العالم إلى شرق وغرب، بل إلى وسط هي الصين، وإلى أطراف هي بقية الأمم، جعلها الله لتحمي بلاد الصين، ولم يكن من عادة العلماء العرب المسلمين الاكتفاء بشرق وغرب، وإنما بمشارك الأرض ومغاربها، وتساءل عن مدى براءة الاستشراق من السياسة والهيمنة الاستعمارية، ومدى ارتباط بعض العلوم بها كالجغرافيا مثلاً، ولكن هذا لا يمنع من مساءلة آدائهم العلمي حتى ولو كانوا جواسيس.

وتناول الدكتور محمود المليون من جامعة ليون 3 بفرنسا، موضوعاً بعنوان: «مساهمة في تقديم هنري كوربان (1903-1978) Henry Corbin فيلسوفا ومستشرقاً». وأما الدكتور علي دراجي، فقد قدم مداخلة بعنوان: «الاستشراق والتاريخانية العربية»، جاء فيها على الخصوص: «تسربت

جهود الاستشراق إلى فضاء الثقافة العربية فأصابت عدوى التاريخانية (l'historicisme) علماء الأمة المحدثين، وهي حقيقة تجلت في مناهج القراءة التاريخية المنفصلة عن المعطى الإيماني، المكتفية بالحدث الإنساني في بعده الزماني والمكاني. لتاريخانية كما عرفها العروي وهو من أبرز دعايتها ومناصريها "هي النزعة التاريخية التي تنفي أي تدخل خارجي في تسبب الأحداث التاريخية، بحيث يكون التاريخ هو سبب وخالق ومبدع كل ما روي ويروي عن الموجودات". إنها بهذا المعنى تعبير عن رؤية فلسفية ترفع القراءة التاريخية إلى مستوى من الوعي ينفصل فيها الحدث التاريخي عن الميتافيزيقي فيصبح الإنسان وحده مالكا لمصيره واعيا وعيا موضوعيا بما حدث وبما هو حادث وبما يكون في مستقبل وجوده، إنها التمثل العلمي الموضوعي لوقائع الماضي بعيدا عن العوامل الخارجية عن إرادة الإنسان (الله، القضاء، القدر، المعجزات...). التاريخانية إذن هي إخضاع التاريخ البشري للنزعة العقلانية الحديثة، إنها في منظور من آمن بها مشروع أيديولوجي كفاحي يرمي إلى تحرير العقل من قيود اللاعقل، قاد هذا الاتجاه الفكري الناشئ عن ثمرات الاستشراق جهود النخبة العربية المثقفة في العقود الأخيرة من القرن العشرين، ووجه القراءة التاريخية للموروث العربي والإسلامي وجهة جديدة هي أقرب إلى التحرر من الرؤية السكونية للموروث، ومن النزعة الجامدة المرتكزة على قداسة السلف».

وأعدَّ الدكتور/سعد بوفلاقة من المغرب الأوسط مداخلة موسومة بـ: «الاستشراق الألماني وأثره في الثقافة العربية-آنا ماري شيميل نموذجاً»⁽¹⁾ كما شارك في الندوة أيضاً الأساتذة الباحثون: هشام جعيط، سالم بوخداجة، فوزي البدوي، العروسي الأسمر، العادل خضر، فريد العليبي، فتحي الغدامسي، رمزي بن حليلة، منير زكري، عبد الله البهلول، علي الغيضاوي، أسماء الجموسي، التي تناولت في مداخلتها «القراءة الاستشرافية للقصيدة»، بينت فيها الإشكالية المطروحة، وهي منهج قراءة التراث، وتساءلت عن البراءة في القراءة الاستشرافية للقصيدة العربية، وأشارت إلى وجود عدائي، وتوجه آخر احتوائي.

كما شارك في الندوة أيضاً، توفيق قريرة، عبد الفتاح الفرجاوي، الحبيب النصراوي، محمد الصحبي البعزاوي، المنجي العمري، عبد العزيز لبيب، حمّادي المسعودي، بلغيث عون، بثينة الجلاصي، محمد علي الحبيب، محمد الرحموني، معزّ نصري، منجية عرفة منسية، عدلان جمعة، عبد الرزاق المجبري، علي بن مبارك، سهام الدريسي، سعاد خوجة، ونّاس الحفيان، (من المغرب الأدنى).

والدكتور الطاهر رواينية، الذي قدم في محاضراته الموسومة: «ما بعد الاستشراق: النقد الجديد، وتحديث النقد العربي»، نظرة دعا من خلالها إلى تحديث، وتجديد النقد العربي، وعدم الارتباط بالاستشراق الذي تجاوزه

⁽¹⁾ حضر اليوم الأول من الندوة، وسافر في اليوم الثاني لظرف عائلي طارئ، ولم يقدم المحاضرة، ولكنه سلم نسخة منها إلى الأستاذ الدكتور رضا بن حميد رئيس القسم ورئيس اللجنة العلمية للندوة.

الزمن، فبهذه المرحلة، أي مرحلة ما بعد الاستشراق آلية جديدة، ومناهج أخرى في مقاربة العلوم.

والدكتور عبد الحق بلعابد، الذي قدم مداخلة تتبنى في صلبها مجازات، وصوراً شعرية تقوم على الانخراط في ذات الآخر، لكأنه الذات تجاوزاً للخطايا الخلفية الاقتصادية.

وأما الدكتور حفناوي بعلي من الجزائر، فقدم بحثاً بعنوان: «الدراسات ما بعد الاستعمارية: خطاب ما بعد الاستشراق»، ومما جاء فيه: «صاغت تجربة الاستعمار أو الكولونيالية حيوات، وأعمار ثلاثة أرباع البشرية، التي تعيش في عالم اليوم. وكانت هذه الصياغة من العمق لدرجة أن تأثيرها، لم يقتصر على المجالات السياسية والاقتصادية وحدها، بل تعداه إلى المجالات الثقافية والفكرية والأيدولوجية، ومنها إلى المدارك والتصورات، التي يوفر الأدب والفن والثقافة عموماً، واحداً من أهم السبل في التعبير عنها. غير أن هذه الصياغة لم تحمل معنى الامتثال والمحاكاة السلبية فحسب، بل حملت أيضاً ومنذ وطأت أقدام المستعمرين أراضي الشعوب الأخرى، معنى الرد والمقاومة على اختلاف أبعادها وألوانها ومراميها، تبعاً للمسار التاريخي الذي قطعته تجربة الاستعمار وصولاً إلى زواله.

أبرز إدوارد سعيد أن هناك سمات ملازمة للنصوص، التي تتناول البلدان المستعمرة، والتي مصدرها أنظمة عقائدية تهيكّل القوالب الخطابية، وتعطيها المصادقية والقوة، علاقات السلطة التي نجدها في الإمبريالية، وتذهب «ماري لويز برات» إلى أن تلك البلدان التي استعمرت، أصبحت لا ترى سوى أنها مواضيع البحث والمعرفة، فلم يكن يمثل واقع هذه البلدان

على أنه من نفس شاكلة واقع البلدان الغربية، لكن كانت مهمة المعمرين عند كتابتهم عنه، أن ينتجوا ما كانوا يسمونه أنفسهم بـ: "المعلومات"، وكانت مهمتهم إدماج واقع معين في سلسلة من الأنظمة المعرفية المتشابكة، منها الجمالية والجغرافية والاقتصادية والإثنوغرافية وما إليها». ومحمد رمضان، وعلي خفيف (من المغرب الأوسط).

وشارك من المغرب الأقصى الدكتور محمد مفتاح، الذي تميزت مداخلته بأهمية خاصة، نظراً لما يتمتع به من حدس في عالم السيمانيات، وقد أشار إلى أن الاستشراق يقوم على حقيقتين، وبين أن الثقافة الشرقية، والثقافة الغربية لهما أصل واحد، كما قدم مقاربة طريفة لجملة من المفاهيم، وهي الاستشراق، والإثنسان، والاستخفاف.

وأما الدكتور سعيد يقطين، فقد أشار في مداخلته الموسومة: «الاستشراق والسرد العربي: السيرة الشعبية نموذجاً»، إلى أن الآخر كان يقوم بالفعل، ولم نكن نقوم إلا برد الفعل، وتناول مسألة اهتمام المستشرقين بالنصوص السردية بصورة عامة، والسيرة الشعبية بصورة خاصة، وتساءل لما لا نهتم نحن بالسيرة الشعبية، وانتهى إلى أن التراث السردى الشعبى ظل مُغيّباً، وتساءل عن أسباب ذلك.

وقد تم تكريم شخصيتين متميزتين على هامش الندوة الدولية للاستشراق برقادة، وكانت الشخصية المكرمة الأولى، هو الأستاذ الدكتور هشام جعيط من المغرب الأدنى، وهو مفكر تونسي، من مواليد 1935 بتونس العاصمة، حصل على دكتوراه الدولة في التاريخ والعلوم الإنسانية من جامعة السوربون

بباريس عام:1981م، درس بكلية الآداب بتونس، ثم بالسربون بباريس، كما دُعي كأستاذ زائر في عدة جامعات غربية وأمريكية.
من مؤلفاته:

- الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي (بالفرنسية 1974).
- أوروبا والإسلام: صدام الثقافة والحداثة (بالفرنسية، 1978).
- الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية (بالفرنسية والعربية 1986).
- الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر (بالفرنسية 1989، بالعربية 1992).

- في السيرة النبوية «الوحي والقرآن والنبوة» (2000).
أما الشخصية المكرمة الثانية، فهو الأستاذ الدكتور محمد مفتاح من المغرب الأقصى، من مواليد المغرب، حصل على دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب بفاس، عام: 1972، وعلى شهادة دكتوراه الدولة من كلية الآداب بالرباط عام: 1981.

- أستاذ بكلية الآداب، منذ عام 1969 بالمغرب الأقصى، وعضو لجنة التقويم والاعتماد الخاصة بالدراسات العليا في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بالمغرب.
من مؤلفاته:

- 1- تحقيق شعر لسان الدين الخطيب.
- 2- التيار الصوفي والمجتمع في المغرب الإسلامي في القرن الثامن هجري، الرابع عشر (14) ميلادي.
- 3- في سيمياء الشعر القديم، الدار البيضاء، المغرب 1983م.

- 4- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، 1992م.
- 5- دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1987م.
- 6- مجهول البيان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1990.
- 7- التلقي والتأويل: مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، 1994.
- 8- التشابه والاختلاف، نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1996.
- نشر عدة دراسات ومقالات نقدية، وأدبية في دوريات ومجلات عربية ومغربية.
- شارك في العديد من المؤتمرات الدولية والمغربية.
- وفي ختام الندوة أعد المشاركون كلمة، قدمها الأستاذ الدكتور سعيد يقطين من المغرب الأقصى، أصالة عن نفسه، ونيابة عن زملائه، ومما جاء فيها:

«أيها الحاضرون الكرام،

يسرّني، أصالة عن نفسي ونيابة عن زملائي المشاركين العرب في الندوة العلمية الدولية التي نظمها قسم اللغة والأدب والحضارة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان أيام 8-9-10 ديسمبر 2009 بقاعة الأطروحات برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، أن أتقدم بجزيل الشكر إلى الإخوة في قسم اللغة العربية، وعلى رأسهم الأستاذ رضا بن حميد

على ما غمرونا به من فائض المحبة وصادق المشاعر ووفروه لنا من جوّ إنسانيّ رائع، ونحن نشارك في أشغال هذه الندوة الهامة، التي وفّقوا في اختيار موضوعها، وإحكام تنظيم جلساتها، عبر توزيع محاورها وتعدّد قضاياها...

إنّنا ونحن نسجّل أهميّة أشغال هذه الندوة العلميّة، ونثمّن النجاح الباهر الذي حقّقته سواء على مستوى نوعيّة المداخلات وطبيعة النقاش وغزارة الحضور من الطلبة والأساتذة، نبين أنّ أهمّ الخلاصات التي يمكننا تقييدها استشرافا للمستقبل، وفتحاً لآفاق جديدة للتفكير والعمل، انطلاقاً من حصيلة هذه الندوة العلمية الهامة، تتمثّل فيما يلي:

1. طبع أشغال هذه الندوة لتكون مرجعاً للطلاب والباحث
2. العمل على توفير المادّة الاستشرافية بلغاتها الأصلية في مكتبات الجامعات والكليات العربية، والعمل على ترجمتها ودراستها دراسة علمية.
3. لقد كان أهمّ أثر للاستشراق في الثقافة العربيّة يبرز في إيجاد النصّ العربيّ وتحقيقه، خلال فترة الطباعة. ولولا مجهوداتهم العظيمة لما تعرفنا على الكثير من الكتب والأعلام العربيّة-الإسلامية. ولقد سار على منوال المستشرقين علماء أجلاء عرب في الاشتغال بالتحقيق وفق أصول علميّة، جعلت التحقيق مبحثاً من أهمّ المباحث العربيّة، فقدوا بذلك خدمات جليّ للثقافة العربيّة.

أمّا اليوم، ونحن على عتبة حقبة جديدة، من الإنتاج والتلقي، عبر توظيف وسائط جديدة للمعلومات والتواصل، والتي أدّت إلى ظهور الرّقامة

أمام ضرورة علمية ومعرفية لا تقل أهمية عن علم التحقيق الذي ارتبط بالطباعة. إنها مرحلة "ترقيم" النص العربي الإسلامي.

لقد سبقنا المستشرقون إلى تحقيق التراث العربي. ولا يمكننا ان ننتظر منهم العمل على ترقيمه. إن أهم درس يمكننا استخلاصه، ونحن في ندوة حول الاستشراق وأثره في الثقافة العربية، هو أن علينا العمل على ترقيم التراث العربي مستهدين بطريقتهم في التحقيق.

دخل العرب مرحلة الطباعة فظلوا منفصلين بها سبقهم إليها المستشرقون. ولا يمكننا دخول مرحلة الرقمنة إلا معتمدين على أنفسنا لنكون فاعلين، ناقلين تراثنا إلى الأجيال القادمة بوعي ومسؤولية وإبداع.

شكرا مرة أخرى لكل الذين ساهموا في إنجاح هذه التظاهرة العلمية، وأخص بالذكر رئاسة الجامعة، وكلية الآداب وقسم اللغة العربية وآدابها، وكل المشاركين من تونس وخارجها.

والله وليّ التوفيق. وشكرا».

كما قدمت اللجنة التنظيمية للندوة تقريراً ختامياً، ومما ورد فيه: «وبهذا تكون الندوة قد قدمت مجموع أعمالها وأبانت عن مختلف تصوراتها، وأثارت من الأسئلة ما به يُدعى الباحث إلى تعميق النظر.

لقد تطلعت هذه الندوة إلى جملة من المطامح المعرفية والفكرية والمنهجية:

- تعميق الروابط بين الأساتذة الباحثين في الجامعات العربية

- الاهتمام بموضوع الاستشراق وأثره في الثقافة العربية اهتماما علميا وتناولها في حقول معرفية متنوعة، ومن زوايا متكاملة تاريخية، واجتماعية، وفلسفية، وانتروبولوجية، ولسانية تداولية، وأدبية...

- مراجعة الطروحات الاستشراقية وكيفية تقبلها لفهمها منزلة في سياقاتها الحضارية والثقافية التي احتضنتها، حتى تأخذ قضية الاستشراق في الثقافة العربية أبعادا أخرى تتأى بالموضوع عن طرائق السّجال والإقصاء إلى سبل للحوار أعمق وأخصب وأقدر على فهم الذات وفهم الآخر فهما يتيح تحقيق أفضل القيم وينظر من خلاله في الإنسان والثقافة والمعرفة نظرة تساعد على التواصل والبناء بدلا من التفاصيل والإقصاء فالهموم مشتركة والمقصد الأسمى واحد.

- إعادة النظر في مقولات الأنا والآخر، والأصيل والدّخيل.
- دعوة المثقف العربي إلى عدم الاكتفاء بالمكتسبات النظرية، بل هو مدعو إلى الاضطلاع بأدواره العلمية والثقافية.

في هذا الإطار، دعونا إلى المشاركة في أعمال هذه الندوة، نخبة من الباحثين الأكفاء والأساتذة الأجلاء، ثلاثة وخمسين مشاركا، من ذوي الاختصاص، أضافوا إلى الندوة بحضورهم، فأفادوا بعلمهم العميق وحسّهم النقديّ الدقيق، وحققوا شرطا من شروط المعرفة أكيدا، شرط التمثّل القويم والإضافة النوعية.

ومما ميّز هذه الندوة العلمية، في مختلف جلساتها العلمية:
- الحضور الكثيف-أساتذة وطلبة- والمتابعة الجدية والنقاش الثريّ البناء

- شيوع التفكير النقدي لدى المثقف العربي، تبيننا هذا في كيفية تناول أغلب المتدخلين للموضوع بمسافة نقدية واضحة والانتباه إلى إمكان التفكير انطلاقا من الذات بدلا من اعتبار الذات موضوعا للتفكير أو تنصيب الآخر مركزا واتخاذ معيارا.

وقد عبّر عدد من الحاضرين عن تقديرهم لسير أشغال الندوة وحسن تنظيمها وثمرتها ما جاء فيها واقترحوا أن ينال النقاش حظا أوفر من الوقت، وأن يكون مباشرة بعد انعقاد الجلسة العلمية الواحدة بدلا من مناقشة الجلستين معا.

وكانت هذه الندوة فرصة لتكريم علمين كبيرين هما الأستاذان هشام جعيط ومحمد مفتاح، اعترافا بجهودهما وتقديرا لما أسدياه إلى الفكر العربي من جليل الأعمال والإضافات. وقد لاقى هذا التكريم استحسانا بدا في كلمات الحاضرين.

وفي الختام نشكر مجددا الأساتذة الباحثين الذين وفدوا علينا من الجامعات الجزائرية والمغربية والليبية والفرنسية، ونشكر الدور الذي اضطلعوا به في هذه الندوة.

واللجنة التنظيمية تقدر هذا التفاعل البناء وتدعو إلى مزيد الحوار بين المؤسسات الجامعية العربية ومزيد تفعيل الشراكة العلمية، وتعد بنشر هذه الأعمال وهي تطلب إلى السادة المحاضرين تسليم أعمالهم في نسختين (ورقية ورقمية)، وتدعو إلى التفكير معا في موضوع الندوة العلمية القادمة اقتراحا للموضوع وتصورا لقضايا الكبرى.